

المقاومة العائلية لسياسة القمع العثماني 1825 - 1750

د. حسين سلمان سليمان(*)

وإلى أن يتم ذلك فخيرٌ لنا أن نمرج من التوقف عن المشي كلياً، وإذا كان التعمق التاريخي ضرورة، والمادة العلمية أقل وفرة مما نرغب ونتمنى، فما هذا بعذر مقبول لتجنب الموضوع.

وسوف يكون اطار بحثنا للفترة التاريخية الممتدة من منتصف القرن الثامن عشر ولغاية نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، مع التركيز على الموقف العمالي من العثمانيين بعد نهاية الشيخ ناصيف النصار سنة 1781.

لم تشكل حدود لبنان الحالية مجتمعاً سياسياً واحداً خلال الإمارتين المعنية والشهابية، ولكن عاش سكانها منذ قرونٍ في أقاليم منفصلة، لم تكن تحمل اسماً واحداً، ولم تستعمل كلمة لبنان بالمعنى الرسمي المحدد المضمون، إلا بعد إنشاء المتصرفية اللبنانية سنة 1861، فقد عُرف المعينون باسم امراء الدروز لا امراء لبنان، وكذلك عرف خلفاؤهم الشهابيون،

أود أن اشير في مستهل هذا البحث إلى المصاعب التي تعترض الباحث في تاريخ بلاد الشام عموماً وجبل عامل خصوصاً، خلال معظم الفترة التي خضعت فيها للحكم العثماني (1516 - 1918)، بسبب غياب المصادر الأصلية لتلك الفترة التاريخية، فرغم الحركة الفكرية والعلمية التي عرفها جبل عامل في ذلك الزمن، نلاحظ ندرة المشتغلين من أبنائه في علم التاريخ، وإعراضهم عنه وانصرافهم الى علوم الدين من فقه وتوحيد. ونميل إلى الاعتقاد بأن هذا النقص انما هو نتيجة لما أصاب البلاد العائلية بعد احتلالها من قبل أحمد باشا الجزار، وما أعقب ذلك من مصادرته للمكتبات العائلية، التي كانت تغص بالكتب والمخطوطات الثمينة. ونأمل أن يتم سد هذا النقص، مع نشر مزيد من الوثائق المحلية والأوروبية لتلك الحقبة التاريخية.

(*) قسم التاريخ - كلية الآداب - الجامعة اللبنانية

رغم أن هؤلاء لم يكونوا دروزاً، ولكن من السنة الذين تنصروا فيها بعد⁽¹⁾.

وقد أطلقت عبارة جبل لبنان على المقاطعات الجبلية الشمالية (جبة بشري وجبيل والبترون)، ولم يستعمل العثمانيون هذا التعبير في مراسلاتهم السياسية مع امراء لبنان، لأن الاسم لم يكن متداولاً إلا بين الموارنة، الذين لم يكن لهم كيان سياسي خلال الفتح العثماني، بعكس الدروز الذين برز زعماءهم كقادة سياسيين في غرب سوريا⁽²⁾. وعُرفت المنطقة الممتدة الى الشمال من طرابلس باسم عكار، وأغلب سكانها من المسلمين، شاركوا في كثير من الأحيان في الأحداث السياسية التي كان مسرحها مقاطعات المرتفعات الجبلية اللبنانية. في حين أطلق جبل الدروز أو جبل الشوف على البلاد التي تشكل نصف دائرة، طرفها الأول شمالاً في جبيل والثاني جنوباً في صيدا⁽³⁾، وقد عرفت بهذا الاسم على الصعيدين الرسمي والشعبي⁽⁴⁾. ومع ازدياد هجرة موارنة الشمال الى جبل الدروز، شاع منذ نهاية القرن الثامن عشر، استخدام عبارة «جبل لبنان»، للدلالة على الامارة بكاملها⁽⁵⁾. اما رسائل التنصيب التي كانت تُرسل إلى الشهابيين، فكانت توجه إلى جبل الشوف أو جبل الدروز، واستمر هذا الاسلوب متبعاً حتى أواخر حكم الشهابيين سنة 1841⁽⁶⁾. أما المنطقة الممتدة وراء صيدا فقد عرفت باسم جبل عامل، واطلق على البلاد التي تتصل بها شرقاً اسم اقليم وادي التيم، وهي مهد آل شهاب⁽⁷⁾. وقد ارتبط تاريخ هذه المناطق التي أشرنا إليها ارتباطاً وثيقاً، بحيث غالباً ما كان ينعكس الحدث التي تصادف أحدها على الأخرى.

وقد قسمت هذه الأقاليم إلى إقطاعات محددة المساحة، تولى على كل منها إقطاعي من عصبية محلية يحمل لقب أمير أو مقدم أو شيخ، وهو ذو سطوة ونفوذ على سكان مقاطعة، الذين يقفون إلى جانبه عند حاجته اليهم، ولا يخالفونه بشيء. ويتبع هؤلاء المقاطعية (المناصب بلغة ذلك العصر) - زعيم قبلي أعلى - (أمير حاكم في جبل الدروز) و(شيخ مشايخ في جبل عامل) - يلتزمون هذه المقاطعات من الوالي العثماني مقابل مبلغ سنوي يزيد وينقص وفقاً لمدى التآلف السائد بين المقاطعية، وقدرة الوالي على التدخل في شؤونهم. ثم يفرض الأمير الحاكم أو شيخ المشايخ المبلغ على المقاطعات، فيقوم المقاطعية بجبايتها من رعاياهم⁽⁸⁾؛ وهذا أحد مظاهر الالتزام الذي طبقته الدولة العثمانية في العديد من الولايات. كما يتوجب على الأمير الحاكم أو شيخ المشايخ، بالإضافة إلى هذا الواجب، ان يقدم خدماته العسكرية حين تدعوه الدولة إلى ذلك، فيحضر معه أتباعه بالسلاح والرجال، وعرف هذا الواجب بالاقطاع العسكري⁽⁹⁾.

وهكذا يتبين لنا مما تقدم، بأن السلطة العثمانية لم تفرض حكمها المباشر على هذه الأقاليم، بل طبقت عليها سياستها في معاملة الولايات الجبلية الوعرة، أو البعيدة عن قلب السلطة المركزية، وبأنها جمعت في حكم لبنان نظامين إقطاعيين اعتادت ان تطبق احدهما أو الاثنین معاً، في مناطق تمتع بوضع جغرافي شبيه بلبنان، مثل كردستان وشبه جزيرة العرب، وذلك بجعل الحكم العثماني فيها اسماً أو سطحيّاً. بمعنى أنها لم تكن ترسل إلى أقاليمها تلك حكماً عثمانيين، وانما فقط تعترف بوجود زعيم قبلي

ترتفع حوالى ألفي متر عن سطح البحر، وسهولاً داخلية تخرقها انهارٌ وجداول⁽¹⁴⁾. وقد اطلقت على تلك البلاد تسميةً جبل عامل نسبةً إلى قبيلة عاملة بن يشجب بن يعرب بن قحطان وعُرفت في العصور الحديثة باسم «بلاد بشارة»⁽¹⁵⁾، وشاع في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تسمية «بلاد المتاولة»، منذ أن أطلقت هذه التسمية على معظم سكان هذا الجبل من الشيعة الامامية الاثني عشرية، وقد راجت التسمية الأخيرة في تقارير القناصل الأوروبيين، التي كانت ترسل إلى حكوماتهم (pays du Mutualis)⁽¹⁶⁾.

وقد سارَ العثمانيون في حكم جبل عامل على السياسة نفسها، المتبعة في إدارة الولايات الجبلية الوعرة، فقد كانت تلك البلاد تتبع ولاية صيدا في الفترة موضوع البحث. وكان يتولى إدارة مقاطعاتها مجموعة من المشايخ، يقيم كل منهم في إحدى تلك المقاطعات مع اتباعه المزارعين، الذين يتعهدون أرض المقاطعة لحسابه⁽¹⁷⁾. ويتسمى هؤلاء المشايخ إلى ثلاث عائلات إقطاعية لها السيادة الأولى في تلك البلاد، وهم بنو صعب في مقاطعة الشقيف، وبنو منكر في الشومر والتفاح وآل علي الصغير في مقاطعة بشارة⁽¹⁸⁾، وكان بمقدور كل شيخ عند الحاجة أن يجند من مئتين وخمسين إلى ثمانمائة رجل، إذا اجتمعوا معاً يشكلون قوة قتالية قوامها تقريباً ستة آلاف مقاتل، معظمهم من الفرسان اشتهروا في كل سوريا بشجاعته من النادرة، التي شهد لهم بها معاصروهم من الفرنسيين⁽¹⁹⁾، فقد اشار إلى ذلك الدبلوماسي الفرنسي باراديس⁽²⁰⁾ (Paradis) بقوله:

«شاهدناهم يقاتلون بترتيب ونظام، مما جعلهم يتصرفون على أعدائهم الذين يفوقونهم عدداً...».

أو عسكرياً أو إقطاعياً يحكم باسم السلطان، ويدفع في كل سنة الميري والجزية المقررة عليها، ويحافظ على النظام بين السكان⁽¹⁰⁾. وإذا بلغ أحد هؤلاء الزعماء درجة من القوة والنفوذ، ونزع إلى الاستقلال وشكل خطراً على جيرانه، كانت السلطة المركزية في الأستانة أو في الولايات، تتذرع بالصبر وتنتظر الفرصة المناسبة للإيقاع به. وذلك لاقتران أولئك المسؤولين بأن القضاء على جميع المتمردين في وقت واحد أمرٌ صعب ولا نهاية له، ويتطلب أموالاً وفيرة وقوات غفيرة. كما ان الإحفاق قد يؤدي إلى استمرار المتمردين في عصيانهم، وإلى زوال سطوة الدولة وهبتها، لذلك كانت السلطات العثمانية تثير على هؤلاء جيرانهم أو أقرباءهم أو أبناءهم أنفسهم⁽¹¹⁾.

ولم تكن الأقاليم المشار إليها تخضع مباشرة لسلطة حاكمية واحدة تأتمر بأمرها، ولكنها خضعت إلى سلطات عديدة موزعة ما بين ثلاثة ولايات عثمانيين، يفرضون أحياناً سلطتهم المباشرة على رعاياهم في عواصم ولاياتهم (دمشق وعكا وطرابلس)، وأحياناً أخرى عن طريق وكلاء عنهم. في حين كانوا ينيون عنهم متسلمين بالمدن الساحلية الكبرى⁽¹²⁾، ويلزمون إدارة المقاطعات الجبلية إلى زعيم عصبية محلية، أحد بكوات آل الأسعد المرعبي في عكار، امراء آل حرفوش في بلاد بعلبك، امير شهابي في وادي التيم، وآخر في جبل الدروز ونواحي مقاطعة جبيل، ومشايخ آل علي الصغير في جبل عامل.

وامتدت حدود جبل عامل من نهر الأولي شمالاً إلى الرأس الأبيض جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً حتى بحيرة الحولة شرقاً بعرض ثمانين كلم⁽¹³⁾. وهي منطقة منبسطة هضاباً وأودية كثيرة سحيقة، وجبالاً

تطلعت إلى محالفتها قوى محلية في بلاد الشام الجنوبية ومصر، كانت قد تمردت هي أيضاً على السلطات العثمانية، وتطلعت إلى استغلال موارد بلادها، والتخلص من عسف الولاة وظلمهم. وتمثلت هذه القوى في (ظاهر العمر في الجليل وعلي بك الكبير في مصر)، وانزل المتحالفون هزائم مُدَلَّةً بقوات كل من والي الشام عثمان باشا الصادق (1760 - 1771) وأمير جبل الدروز يوسف الشهابي (1770 - 1789)، في دمشق والحولة والنبطية وسهل الغازية وزحلة. ولكن هؤلاء الزعماء المتمردين ما لبثوا أن سقطوا الواحد تلو الآخر.

وباستناد ولاية صيدا إلى أحمد باشا الجزائر (1776 - 1804)، تجنب في الفترات الأولى من حكمه الصدام مع العاملين، نظراً لما يعلمه عن شجاعتهم ووعورة بلادهم. ولكن ما ان ازدادت ثقته بنفسه وبقدرته على التعامل معهم بحزم، حتى قرر عام 1781 الاستفادة من فرمانٍ عثماني يأمره بالسير إلى بلاد عاملة وتدميرها⁽²⁸⁾. فوجد في ذلك فرصة لتحقيق مكاسب عديدة، تتلخص في مضاعفة ثروته وتعزيز مكانته في الأستانة، وإقامة حكم مركزي فعال. كما ان نجاحه في ذلك من شأنه إرضاء السلطات العثمانية التي كانت تنظرُ شزراً إلى شيعة العراق ولبنان واليمن، بسبب تجانسها الديني مع بلاد الفرس الشيعية، التي كانت في حالة حرب مع العثمانيين.

وفي 23 ايلول (سبتمبر) 1781 تصدى العاملون للحملة عند قرية يارون، فجرى اقتتال انتهى بمقتل الشيخ ناصيف وشقيقه أحمد مع حوالى أربعمئة من مقاتليه، في حين فقد قائد الحملة ما يقارب ثلث عساكره⁽²⁹⁾. ثم تقدمت القوات الغازية في بلاد عاملة

وشهد جبل عامل في النصف الأول من القرن الثامن عشر، ازدهاراً اقتصادياً بارزاً، نتيجة لنشاط التجار الأوروبيين وخصوصاً الفرنسيين منهم في بلاد الشام الجنوبية وتشجيع التجارة معهم، فاهتم السكان بزراعة القطن والتبغ بعد أن وجدوا أسواقاً لها لدى الفرنسيين بالإضافة إلى مصر⁽²¹⁾. كما أخذ التجار الفرنسيون يتصلون مباشرةً بمشايخ القرى، وصاروا يدفعون لهؤلاء ثمن قطنهم مقدماً، فأدت هذه العلاقة إلى ازدياد المساحة المزروعة قطناً، واشتهرت بلدة انصار بجودة إنتاجها من هذا المحصول⁽²²⁾.

وبازدياد مداخيل مشايخ جبل عامل ثمت قوتهم العسكرية وازداد نفوذهم السياسي، وترغمهم شيخ المشايخ ناصيف النصر الذي اتخذ من قلعة تبين مقراً له⁽²³⁾. واستطاع مع باقي المشايخ من ترميم القلاع العاملة وتزويدها بالأسلحة والذخائر⁽²⁴⁾، وتمنعوا عن دفع الضرائب إلى والي صيدا كلما حاول الأخير أن يجبي منهم أكثر من تلك المقررة عليهم⁽²⁵⁾. وأشارت إلى ذلك إحدى الوثائق الفرنسية الصادرة عن صيدا بتاريخ 1757/11/4 بقولها:

«... الشيخ ناصيف يعتقل نائب قنصل الرملة ويقتاده إلى تبين، ابلغ القنصل الفرنسي في صيدا باشا الولاية بالحادثة، لكن الأخير أبدى له استياءه من تصرف الشيخ المذكور (أي ناصيف) الذي يرفض ان يدفع له الميري المتوجة للباب العالي...»⁽²⁶⁾.

وجاء في وثيقة أخرى «أرسل الشيخ (أي ناصيف النصر) مائة وخمسين فارساً لمصادرة البضائع، وأمرهم بمصادمة قوات الباشا إذا حاولت منهم...»⁽²⁷⁾.

وبذلك شكل العاملون قوة مهيبة في المنطقة،

لتحطيم قلاعها الرئيسية، فسقطت جميعها باستثناء قلعة الشقيف، التي صمد فيها الشيخ حيدر الفارس مع ستمئة من اتباعه، وابدى شجاعة وبسالة في مقاومة الحصار الذي فرض عليهم⁽³⁰⁾، ولم يستسلموا إلا بعد أن بذل لهم الجزائر وعوداً بأنه لن يلحق بهم أية أذية⁽³¹⁾.

ورغم احترام الجزائر لوعده، ومنحه للشيخ حيدر واتباعه أقطاعات ليعيشوا عليها. فإن الأخير لم يخف عليه أن هدف الباشا من هذه المعاملة الحسنة، ليس سوى محاولة منه لتشجيع العاملين الذين فروا من بلادهم، للعودة إليها واستثمارها، مما سيعود على الجزائر بموارد مالية وفيرة. فما ان عاد الأخير إلى عكا، حتى هرب الشيخ ومعه اتباعه إلى دمشق، حيث وجدوا الحماية من واليها⁽³²⁾.

واستبدل الباشا بمشايع مقاطعات جبل عامل ضباطاً من عنده، مزودين بفرق عسكرية قادرة على السيطرة بفعالية على تلك المقاطعات، أما من استطاع من العاملين الفرار، فقد انتقل إلى بلاد بعلبك وعكار خشية التعرض للذل⁽³³⁾. لكن هذا الشعب الذي اعتاد أن يحكم نفسه بنفسه أبى أن يخضع لتسلط الجزائر وقواته. فبادر الشيخ فارس الأبن الأكبر للشيخ ناصيف إلى لعب دور والده النصالي، فجمع شمل العاملين الذين تركوا بلادهم، وشكل منهم فرقة انتحارية للأغارة على معسكرات الجزائر⁽³⁴⁾، كما سعى في الوقت نفسه إلى الاتصال بمن تبقى في البلاد العالمية، لتنسيق الكفاح مع الفرق الانتحارية التي شكلها، في وقت بدأت تنتشر فيه اشاعات بأن الباب العالي غاضب على الجزائر، وسوف يرسل حملة برية وبحرية لتدميره. فتشكلت خلايا سرية في جبل

عامل، خططت للانقضاض على عساكر الباشا بمجرد تبلغهم أول اشارة رسمية عن عزله، لكن بوصول أنباء هذه المؤامرة إلى مسامع الأخير، أصدر أمراً في ايار (مايو) سنة 1782، باقتياد الزعماء المتآمرين إلى عكار مقيدين بالحديد، وبطرد جميع المتاولة ومعاملتهم بالشدّة المتناهية⁽³⁵⁾.

لكن الارهاب لم يزرع الخوف في قلوب العاملين، بل زادهم تصميماً على السعي لاستعادة السيادة التامة على بلادهم، وضاعفوا غاراتهم وهجماتهم على عساكر الجزائر، وتعاونوا في عام 1784 مع الأمير يوسف الشهابي الذي سهل امدادهم بالموين والعتاد والمقاتلين⁽³⁶⁾، وبلغت جراتهم إلى حد قيام الشيخ عقيل فارس النصار بالهجوم على قلعة تبين، فافنى العساكر الموجودة فيها، وأخذ منها الثروة التي كان خباها واللّه في الحصن المذكور⁽³⁷⁾.

وفشلت كل محاولات الجزائر للإيقاع بتلك الفرق الانتحارية، وعانت بلاد عامل كثيراً من هذا الوضع، لأنها وقعت بين نارين، نار ضباط الجزائر وعساكره، ونار الثوار العالميين. ولم يكن الجزائر يعترف بالهزائم التي كان يلحقها بجند هؤلاء، بل كان يقلب الحقائق ويبذل جهوداً اعلامية لجعل الأهالي يصدقون كذبه⁽³⁸⁾، كإطلاق المدافع احتفاءً بانتصار مزعوم حققته قواته، رغم انها في الواقع تكون مهزومة. كما كان يحاول ان يوقف نشاط الثوار، عن طريق اثاره الرعب بين الرعايا لكي يتمنعوا عن امداد هؤلاء بالمساعدات أو الانضمام اليهم. كإنزال العقاب العلني بصورة وحشية، بكل من يشتبه بأن لهم علاقة بالثوار. سواء بوضعهم على الخازوق وإبقائهم على هذا الوضع لأيام عديدة عند

ومضاعفة ثروته. وأشارت الوثائق الفرنسية والصادرة عن صيدا إلى ذلك بقولها:

«هَدُّدُوا (أي الجند) بالثورة، وأعلنوا بصوت عالٍ بأن نهب المدن يجب أن يكونَ دُخْلَهُمْ، وصرح الباشا لمرجعي بأنه لولا الذي حدث لكان هؤلاء التعساء (أي الجند) بحالة لا تطاق...»⁽⁴²⁾.

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الوضع إلى تضرر السكان من الجوع، فاقترضوا على اقتناء ما هم في أمس الحاجة إليه من قوتٍ ولبس، ولم يعد أحدٌ يجروء أن يبدؤ عليه أي مظهر يدل على الثراء⁽⁴³⁾. وتركت تلك النكبات بصماتها على مدينة صور، فقد أفادنا الرحالة الفرنسية أوليفيه (Olivier)⁽⁴⁴⁾ الذي زارها في أواخر القرن الثامن عشر، أنه لا يوجد مدينة في الامبراطورية العثمانية، فيها تعاسة مثل تلك الموجودة في مدينة صور. كما أن سان ايتان (St. Aignant)⁽⁴⁵⁾ قد أشار بأنه لم يبق من هذه العاصمة الفينيقية الأثرية، التي كانت سابقاً في غاية الثراء والقوة، إلا ما لم يتمكن الإنسان أن يسلبه منها.

لكن ذلك لم يثن الشيخ فارس ناصيف النصار ومن معه من الثوار، عن متابعة المقاومة والإغارة على الجند العثماني المتواجدين في بلادهم، وسرعان ما حانت الظروف للانتقام من الظلم والعذاب الذي نالهم من الجزائر وجنبيه. فاستجابوا للدعاية التي اطلقها بونابرت لكسب ولاء أهالي بلاد الشام، بأنه أتى لتخليصهم من مظالم الجزائر، وبأنه صديق لكل الذين لن يقوموا بأعمال طائشة، وطلب من كل طائفة أن ترسل عنها مندوباً إلى معسكره، لكي يسزودهم بتصريح يمنع عنهم الاساءات⁽⁴⁶⁾.

مداخل مدينتي صيدا وعكا، أو برفع رؤوس القتلى على مرأى من الناس في أعالي أسوار قلعتي المدينتين المذكورتين⁽³⁹⁾. وأشارت إلى ذلك الوثائق الفرنسية الصادرة عن عكا بتاريخ 16 ايار (مايو) 1780 بقولها: «أصدر أمراً إلى متسلم مدينة صور باعتقال المشايخ والأعيان المتآمرين وإرسالهم إلى عكا. وفي الرابع عشر منه نفذ الباشا فيهم العقوبة، فأمر برفع أربعة وثلاثين منهم على الخازوق عند ابواب المدينة، ولا يزالون حتى الآن ويشاع بأنهم سوف يستبدلون بعدد من أبناء وطنهم الموقوفين والمتهمين كذلك بالتحالف مع المتمردين»⁽⁴⁰⁾.

عانت بلاد عاملة كثيراً من تسلط الجزائر وجنبيه، فعقب كل غارة يشنها الثوار على المعسكرات العثمانية المقامة في بلادهم، يوجه الباشا عساكره إلى القرى العاملة لمطاردتهم. فيعيشون في البلاد فساداً، يصادرون الغلال ويضيقون على السكان، ويفرضون عليهم الغرامات النقدية والقيام بأعمال السخرة، بحجة أن بعضهم يتعاون مع الثوار ويقدم لهم الامدادات، أو يلصقون بالسكان هذه التهمة زوراً. فيطالبونهم بتقديم الهدايا للضباط وإيواء الجند وتقديم ما يحتاجونه من طعام وغذاء. وتأدية العلف لخيولهم. وعند مغادرة القرية يصادرون الدواب لنقل المؤن والذخائر للعساكر، وفي ظروف كثيرة يسترقون النساء والاطفال الرضع ليباعوا في أسواق النخاسة، والقيام بنهب ما يصادفونه من متاع وأثاث ومؤن⁽⁴¹⁾.

وكان الباشا يكثر من هذه الحملات الحربية، ويتغاضى أثناء الغزوات عما يرتكبه الجند من جرائم وآثام، لكي يعوض عنهم مرتباتهم المتأخرة منذ عدة أشهر، وبذلك يتحقق هدفان معاً إرضاء الجند،

واعتقد بأنه كان من الطبيعي جداً، أن يستجيب العاملون لوعود بونابرت، بعد تلك المظالم والمعاملة البربرية والجوع والفقر المدقع، الذي حل بهم على يد الجزائر وعساكره. وليس منطقياً أن يصفهم د. فيليب⁽⁴⁷⁾ حتى في مؤلفه «لبنان في التاريخ»، بأنهم موتورون وناقمون، فقد جذبت العاملين وعود بونابرت وجربوا التعامل معه، لعلهم يتخلصون بذلك من العذاب والآلام والاضطهاد فقدموا إلى معسكره حاملين معهم ما يحتاجه الجنود الفرنسي من مؤن غذائية⁽⁴⁸⁾، وصلت في وقت كان فيه هؤلاء يعانون نقصاً في التموين، بعد رحيلهم من مصر⁽⁴⁹⁾.

ووجد بونابرت في العاملين حليفاً قوياً، يستطيع بواسطتهم أن يؤمّن حدوده الشمالية، إذا استطاع مساعدتهم لاستعادة مقاطعاتهم وقلاعهم. فوجه لهذا الغرض الجنرال (فيال) على رأس قوة من خمسمئة جندي، يرافقه مائتا مقاتل عامل بقيادة الشيخ نصار ناصيف النصار⁽⁵⁰⁾.

وبمجرد وصول الحملة إلى صور، سعى الجنرال (فيال) إلى التقرب من الأهالي، للحيلولة دون قيام ما يعكر صفو الأمن والاستقرار في جبل عامل، على أمل أن يستطيع الشيخ فارس ناصيف النصار ومعاونوه من استعادة سلطتهم التامة على بلادهم، فيتمكن الجنرال المذكور من العودة إلى المعسكر الفرنسي أمام عكا. ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة بادر باتخاذ الاجراءات التالية:

- 1 - دعا جميع أهالي جبل عامل الذين كانوا قد فروا من بلادهم بالعودة الى منازلهم وحقوقهم.
- 2 - وعد النصارى والمسلمين بأنهم سوف يتمتعون بالحقوق والواجبات نفسها، وهذا اجراء جديد لم

يسبق أن تمتع به نصارى الساحل.
3 - أمّد مشايخ جبل عامل بقوات من عنده استعادوا بها مقاطعاتهم السابقة⁽⁵¹⁾.

لكن سيادة العاملين على بلادهم لم تستمر طويلاً، فقد تجمعت مجموعة من العوامل اجبرت الفرنسيين على الانسحاب والعودة إلى مصر، وعلى الفور باشر الجزائر بالانتقام من خصومه الذين وقفوا إلى جانب الفرنسيين، أو أولئك الذين لم يبادروا إلى نجده أثناء محنته. فانزل بمن أمسكه منهم العذاب الأليم، حتى أن الكثير منهم قضى بين أيدي الجلادين⁽⁵²⁾.

وبوفاة الجزائر في الأسبوع الأول من شهر أيار (مايو) 1804، تسلم معاونو اسماعيل باشا مقادير الولاية رغماً عن إرادة السلطات العثمانية⁽⁵³⁾، فتعاون العاملون مع زعماء الشوف لاستعادة السيادة على المقاطعات العاملة. وانزلوا معاً هزيمة قاسية بضباط الباشا عند مرجعيون. ففر من نجا من هؤلاء إلى صور، حيث كانت قد تجمعت نجدة أمدهم بها إسماعيل باشا، فقدموا إلى جبل عامل، وهزموا العاملين والدروز في صدام جرى عند اراضي قلعة هونين⁽⁵⁴⁾.

وباقتراب الحملة العثمانية القادمة عبر بلاد عاملة من دمشق إلى صيدا لقمع تمرد اسماعيل باشا، فرّ ضباط الباشا واستعاد العاملون السيادة على مقاطعاتهم، وتطلعوا إلى استعادة ما كان لهم من نفوذ ومكانة بارزتين في بلاد الشام الجنوبية، وأن يكون لهم دور فعال في تطوراتها السياسية، والاستثمار بخيرات بلادهم الاقتصادية⁽⁵⁵⁾.

وسقط عكا في أيار (مايو) 1805، لم يجد سليمان باشا والي صيدا الجديد شيئاً من كنز الجزائر الذي

عليهم، بصفة شيخ مشايخ، فارس ناصيف النصار، بحيث يكون من حقه الفصل في الدعاوى البسيطة، أما القضايا الكبيرة فيتم الفصل فيها بالاتفاق مع الباشا.

2 - أن يُقَيَّ جانباً من القوات العشائية في المقاطعات العاملة باستثناء أقليم الشومر، تكون مسؤولة عن فرض سلطة الباشا فيها.

3 - أن يلبى العاملون نداء سليمان باشا حين يستدعيهم للقتال، دون أن يتكلف الأخير شيئاً مقابل ذلك⁽⁵⁸⁾.

ورغم أن هذه الاتفاقية حرّمت العاملين من الاستقلال التام الذي تمتعوا به في جبالهم، فقد شجعتهم سياسة التسامح التي مارسها سليمان باشا، على العودة سنة 1805 إلى بلادهم، دون أن يتخلّوا طوال حكم الأخير عن السعي لاستعادة السيادة التامة على مقاطعاتهم⁽⁵⁹⁾.

وبالفعل فقد احترم العاملون تعهداتهم، وانضموا بقيادة الشيخ فارس ناصيف إلى بقية عشائر ولاية صيدا سنة 1810، حين استدعاهم سليمان باشا لقتال خصمه والي دمشق⁽⁶⁰⁾، وكان لمساهمتهم تلك، أثر فعال في الهزيمة التي لحقت بالأخير، في الاقتال الذي جرى في داريا الشام⁽⁶¹⁾. فوجدوا أن من حقهم الآن المطالبة باستعادة السيادة التامة على جميع مقاطعاتهم، كمكافأة لهم لما بذلوه من جهد. لكن سليمان باشا رفض الوساطة التي بذلها الأمير بشير الشهابي لهذه الغاية، وقرر الاحتفاظ لنفسه بالمقاطعات العاملة، لحرمان مشايخها الاستفادة من مداخيل بلادهم الاقتصادية واستعادة مكانتهم السابقة. واعتبر مشاركتهم في اقتال داريا، جزءاً من الالتزامات

كانت تنتظره الأستانة بفارغ الصبر، فبادر باتخاذ الإجراءات التي تؤمن له الموارد المالية اللازمة، فرضى الأستانة عليه واستمراره في منصبه يتوقفان على ذلك. وبعد أن جمع مبالغ باهظة من الأمير بشير الشهابي، وجه عساكره إلى جبل عامل، فاحتلت قلاع تلك البلاد ومقاطعاتها، للاستئثار بمواردها، والحيلولة دون قيام قوة مرهوبة الجانب على الحدود الشرقية الشامية لولاية صيدا⁽⁵⁶⁾. فعاد مشايخ عاملة إلى التمرد من جديد، وشكلوا فرقاً انتحارية، وأشارت إلى ذلك مجموعة (BE1) من وثائق أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بقولها:

تمرد المتأولة وأسرّفوا في تجاوز السلطة، ولم يعودوا راغبين في أن يكونوا تابعين لحكومة عكا، ويرفضون استقبال المتسلمين المعيّنين في صور وباقي الأماكن⁽⁵⁷⁾.

وخشي سليمان باشا من عودة بلاد عاملة إلى وضعها السابق، وما يتطلبه ذلك من عساكر كثيرة تُوزَّع في مقاطعات تلك البلاد، ومصاريف سوف تذهب بالجانب الأكبر من الأموال التي سيجمعها من الولاية، وبالتالي سوف يُضطر إلى الأخذ بسياسة سلفه وما يلي ذلك من خراب اقتصادي وإفكار لتلك البلاد من سكانها. فوجد من الأفضل له، أن يتبع سياسة التهدئة والتقرب إليهم وطمأنيتهم إلى مصيرهم، وادرك أن نجاحه في هذه المهمة، يتطلب تكليف طرف ثالث لمفاوضتهم، فارتأى أن يوسط الأمير بشير الشهابي في هذه القضية.

وبعد مفاوضات طويلة تمّ التوصل إلى اتفاق يقضي بـ:

1 - عودة العاملين إلى بلادهم، وإن يترأس

الملقاة على عاتقهم بموجب العقد الاقطاعي⁽⁶²⁾.

وبوفاة سليمان باشا في سنة 1819، خلفه زوج ابنته عبد الله باشا⁽⁶³⁾، فتعاون مع الأمير بشير عام 1822، ودخلا في صراع مكشوف تحول إلى اقتتال مع والي دمشق درويش باشا⁽⁶⁴⁾. فأنار تصرفُ الحليفين استياء السلطات العثمانية في الأستانة وأعدت خطة لضربهما معاً، فاضطّر عبد الله باشا إلى الاستعانة بما يوجد في مقاطعات ولايته من قوى محلية، مشهود لها بكفاءتها القتالية. ونظراً لمعرفة التامة بما يتمتع به مقاتلو جبل عامل في هذا الميدان، سعى إلى ضم هذه القوة إلى صفوفه، عن طريق التلويح للشيخ فارس ومعاونيه، بأنه مستعد، مقابل مساعدتهم له، أن يعيد إليهم السيادة على بلادهم، كما كانت سابقاً في عهد آبائهم⁽⁶⁵⁾.

وشارك العامليون الباشا وحليفه الأمير بشير في الاقتتال الذي جرى عند جسر بنات يعقوب والمرّة، ولعبوا دوراً بارزاً في الانتصار الذي أحرزوه على والي دمشق. فوجه السلطان العثماني حملةً للقبض على عبد الله باشا وارسال رأسه إلى الأستانة⁽⁶⁶⁾. ولم تمُدنا المصادر المحلية ولا الأوروبية عن اتخاذ الحملة أي إجراء بحق العاملين، وإنما علمنا بعودتهم إلى بلادهم، وبأن عبد الله باشا تحصن في عكا، وبأن الأمير الشهابي فرّ إلى مصر، واستطاع توسيط محمد علي، الذي نجح في إصدار عفو عن الباشا، مقابل مبالغ مالية دُفعت فوراً وأخرى قُسطت على دفعات⁽⁶⁷⁾.

وانعكس أثر تكاليف هذا الرضى على سكان ولاية صيدا، الذين وقع عليهم عبء تسديد هذه المبالغ، والتعويض على الباشا نفقات حصار استمر ثمانية

أشهر، عانوا من جرّائها⁽⁶⁸⁾. وليس هنا من مجال لذكر المظالم التي نزلت بهم، وإنما نكتفي باقتباس بعض ما جاء في التقارير الفرنسية المعاصرة، والتي تصور لنا حالة البؤس والشقاء.

«... يسود البؤس بين السكان من نصارى ودروز ومتاوله في جبل لبنان وجبال لبنان الشرقية...، امتنع السكان ليس فقط عن استهلاك أية سلعة أوروبية، ولكن أيضاً حرموا من وسائل العيش للبقاء على قيد الحياة، ولاحظت على كل الوجوه وفي كل الأحاديث علامات الذعر والخوف واليأس...»⁽⁶⁹⁾.

ويبدو أن الشيخ فارس قد تمّن عن تنفيذ كل طلبات الباشا الابتزازية، فقرر الأخير التخلص منه بالحيلة، لعله بذلك يفرض إرادته على المقاطعات العاملة. فقد اشارت الوثائق الفرنسية من مجموعة (B.E1) الصادرة عن حلب بتاريخ تشرين الأول (أكتوبر) عام 1824 استدعاء عبد الله باشا للشيخ إلى عكا، وبأنه اعتقله ولم يُفرج عنه إلا مقابل مبلغ ضخم، وحين وصل الأخير إلى بلاده تُوفي من تأثير السم الذي دسّه له الباشا⁽⁷⁰⁾.

وبنهاية الشيخ فارس ناصيف النصار، تنتهي مرحلة هامة من تاريخ جبل عامل، ليخضع سنة 1831 كباقي بلاد الشام للحكم المصري، وقد حاولنا تتبع مجرى التطورات السياسية في السنوات الخمس الفاصلة ما بين الحداثين، فلم نعثر إلا في المصادر المحلية ولا في الأجنبية على ما يشير إلى ذلك. تلك هي صفحة مطوية من تاريخ جبل عامل النضالي، في مقاومة تعسف الولاة العثمانيين، أرجو أن أكون قد وفقت في كشف بعض غوامضها.

الحواشي

- (1) كمال سليمان الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. مترجم، الطبعة الثالثة بيروت، دار النهار للنشر 1967. ص 13؛ محمد جميل بيهم. عروبة لبنان وتطورها في القديم والحديث. بيروت: دار الريحاني للطباعة والنشر، 1969، انظر ص 196.
- (2) HARIK, ELIYA, politics and changes in a traditional societies. Princeton: Princeton University press , 1968. p.16
- (3) ESMAIL, ADEL., Documents Diplomatiques..., ed., des Oeuvres politiques et Historiques, Beyrouth: 25t. 1975 - 1983. t9 p.84
- (4) HARIK. op. cit., p.15
- (5) كمال الصليبي. مرجع سابق، ص (12-13).
- (6) راجع نص فرمان في:
- (7) TESTA, (I. Baron de)., Recueil des traités de la Porte Ottoman avec les puissances étrangères. 10 vols., 1892 - 1894. t.3 pp. (83 - 84).
- (8) JSMAIL. op. cit. t.9 p.104.
- (9) نظام الالتزام. أي أن السلطات العثمانية كانت تبيع حكام الولايات مناصبهم بالالتزام، مقابل مبلغ معين يدفع بعضه مقدماً والبعض الآخر آجلاً، ثم يقوم الملتزم بدوره بتلزييم مقاطعات ولايته أو أجزاء منها إلى ذوي النفوذ فيها. لمزيد من المعلومات انظر: عبد العزيز شناوي. تاريخ أوروبا في العصر الحديث. القاهرة: 1961. ص 534-535.
- (10) الاقطاع العسكري. اطلق عليه في التركية اسم «السباهية»، وهم رجال من الجيش منحوا اقطاعات متباعدة المساحة للاستقرار فيها وزراعتها، مقابل الخدمة العسكرية حين تدعوهم الدولة إلى ذلك، فيلبس النداء مع اتباعهم مزودين بالخيول والسلاح، ويتوقف عدد اتباع كل اقطاعي على مساحة الأرض المقطعة له ومقدار مواردها. انظر: هارولد بون وهاملتون غب. المجتمع الاسلامي والغرب. تر. أحمد عبد الرحيم مصطفى، جزءان، القاهرة: دار المعارف، 1971، راجع ج 1 ص (67 - 69).
- (11) نقولاً زيادة. أبعاد التاريخ اللبناني الحديث (القاهرة): جامعة الدول العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية، 1972، ص 34.
- (12) فرنسوا، شاسبوف فولتي. سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر. تر. حبيب السيوفي، جزءان المجلة المخلصية صيدا، 1948 - 1949. ج 1 ص (66 - 67).
- (13) المستلم شغل هذا المنصب موظفان كان كلاهما بمثابة نائب للوالي العثماني فقد اطلق هذا اللقب على حكام السناجق والمقاطعات الصغيرة أو المدن الهامة، وأيضاً على نائب الوالي في عاصمة الولاية، وكانوا يقومون بجباية الاموال ويرسلونها إلى الحكام الأصليين.
- (14) CHARLES - ROUX François. Les Echelles des Syrie et de Palestine au XVIII Siècle, Paris, 1928 - p.27
- (15) عصام خليفة. جبل عامل والامراء الشهابيين. رسالة غير منشورة لنيل شهادة الكفاءة من كلية التربية في الجامعة اللبنانية، بيروت 1964 ص 7.
- (16) تضاربت الآراء حول أصل تسمية «بلاد بشارة» يرجح محمد جابر آل صفا بأنها نسبة إلى الأمير حسام الدين بن بشارة بن أسد الدين بن مهلهل بن سليمان بن أحمد من سلالة العاملي، وهو من امراء الدولة الصلاحية الكردية حضر مع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وفتح حصن هوين، واقطعه الملك ضبط بانياس. انظر تاريخ جبل عامل. بيروت: (لا.ت) ص 28.
- (17) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1) مجلد 1019 تقرير صادر عن صيدا بتاريخ 1712/9/2.
- (18) المصدر نفسه.
- (19) ميخائيل الصباغ. تاريخ الشيخ ظاهر العمر حاكم عكا وبلاد صفد. حريصا، (لبنان) (لا.ت) ورقة رقم 11.
- (20) ملاحظة: تابنت الأرقام لدى مؤرخي هذه الفترة. راجع فولتي. مصدر سابق. ج 1، ص 463، عبود الصباغ مخ. الروض الزاهر في تاريخ ظاهر. انظر ورقة 11.

Mariti, G.Voyage dans l'isle de Chypre..., 2 vols, Paris 1877 V.2 p.96.

- اعتمدنا على تقرير دار الوثائق القومية في باريس من مجموعة (A.E.B1) مجلد 1035 وثيقة صادرة عن قنصلية صيدا بتاريخ 1772/6/28.
- (20) Paradis, (J.M. Venture de), Mémoires sur les Druses peuple du Liban M.S., pub. dans les Annales de voyage T. IV pp.(333 - 334).
- (21) PARADIS, Mémoires sur la Syrie M.S à (B.N.P) No. 6430/F.R. F(20-21).
- (22) COAEN AMNON., Palestine in the 18th century. Jerusalem, 1973. pp.(13 - 15).
- (23) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1) تقرير صادر عن قنصلية صيدا مجلد رقم 1030 تاريخ 1755/1/3.
- (24) MARITI. op.cit. v.2 p.96
- (25) المصدر السابق مجلد رقم 1030 تاريخ 1755/11/4.
- (26) المكان نفسه
- (27) أرشيف غرفة التجارة والصناعة في مرسيليا مجموعة (J) ملف رقم 795 وثيقة مؤرخة في 1754/12/4.
- (28) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1) تقرير صادر عن قنصلية صيدا مجلد رقم 1039 تاريخ 1781/10/2.
- (29) المكان نفسه.
- (30) المكان نفسه.
- (31) المصدر نفسه تاريخ 1782/6/22
- (32) المكان نفسه
- (33) المصدر نفسه تقرير صادر بتاريخ 1782/10/2.
- (34) ابراهيم العورة. تاريخ ولاية سليمان باشا العادل. مخ. نشرة قسطنطين الباشا، حريصا (لا.ت) انظر ص 34.
- (35) دار الوثائق القومية في باريس مجموعة (A.E.B1) مجلد 979 تقرير صادر عن عكا بتاريخ 1785/5/16.
- (36) المصدر نفسه تاريخ 1784/8/15، حيدر الشهابي. الغرر الحسان في اخبار ابناء الزمان. مخ. نشره أسد رستم وفؤاد افرايم البستاني بعنوان: (لبنان في عهد الامراء الشهابيين). م. الجامعة اللبنانية 3 أجزاء - بيروت 1933. انظر ص 137.
- (37) المصدر نفسه تاريخ 1784/6/4.
- (38) المكان نفسه.
- (39) المصدر نفسه تاريخ 1789/6/2.
- (40) المصدر نفسه تاريخ 1785/5/16.
- (41) ابراهيم العورة. مصدر سابق ص 35.
- (42) المصدر السابق مجلد رقم 1037 تقرير صادر عن قنصلية صيدا بتاريخ 1777/2/17.
- (43) المصدر نفسه مجلد رقم 1039 تقرير صادر عن قنصلية صيدا بتاريخ 1781/10/2.
- (44) Voyage dans l'empire ottoman..., 4 vols, Paris, 1804 V. 4 pp.(58 - 59).
- (45) La terre Sainte p.122
- (46) انظر النص الكامل للوثيقة في (TESTA op. cit v.1 pp(575 - 576)
- (47) لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور التاريخية في عصرنا الحاضر. تر. أنيس فريجة مراجعة نقولاً زيادة. بيروت - نيويورك. مؤسسة فرانكلين. المساهمة للطباعة والنشر 1959. انظر ص (502 - 503).
- (48) نوفل نعمة الله نوفل. كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في أقليمي مصر والشام. مخ. في مكتبة يافت في الجامعة الأميركية في بيروت ومسجل تحت رقم (M.S/ 956/ N32 Ka) ورقة رقم 232.
- (49) RAYBAUD, LOUIS (and others)., Histoire scientifique et militaire sur L'expédition Française en Egypte. 10 vols., Paris, (1830 - 1837). voir v.5 pp(278-281).
- (50) Loc. cit.
- Ibid pp.(278 - 281)

- (51) ادوار الكروي . مرجع سابق ص 217. Loc cit.
- (52) حنايا المنير. الدر الموصوف في تاريخ الشوف. المشرق م 51 ص 445.
- (53) المصدر نفسه ص (471 - 472)، ابراهيم العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا العادل يشتمل على تاريخ فلسطين ولبنان ومدنه وبلاد العلويين والشام. مخ. نشره الأب قسطنطين الباشا، صيدا 1936، انظر ص (18-20).
- (54) المصدر نفسه ص 470.
- (55) المكان نفسه.
- (56) حيدر الشهابي. لبنان في عهد الامراء الشهابيون. نشره فؤاد افرام البستاني وأسد رستم 3 أجزاء، بيروت، 1949، انظر ج 2 ص (432 - 433)، أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة B.E.1 محفظة رقم 6 تقرير صادر عن بيروت بتاريخ 7 Prairialan 1805/5/27 الموافق 13.
- (57) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة (B.E.1) الصادرة عن بيروت محفظة رقم 6 تقرير تاريخه 7 prairialan 7 الموافق 1805/5/27.
- (58) راجع النص الكامل للوثيقة في عبد المحسن الظاهر (حول وثائق لها صلة بتاريخ جبل عامل) العرفان م 27 ص (511 - 512)، ابراهيم العورة، مصدر سابق ص (44-43).
- (59) ابراهيم العورة. مصدر سابق ص (51-50).
- (60) حيدر رضا الركني. جبل عامل في قرن. مخ. نشر في مجلة العرفان انظر م 29 ص 681 سنة 1940.
- (61) ابراهيم العورة. مصدر سابق ص (130 - 128).
- (62) المصدر نفسه. ص (140 - 141).
- (63) المصدر نفسه. ص (460 - 464).
- (64) حيدر الشهابي. مصدر سابق، ج 3 ص (697 - 713).
- (65) المصدر نفسه. ص (712 - 713)، علي السبيعي. جبل عامل في قرنين. مخ. نشرته مجلة العرفان م 5 سنة 1912، انظر ص 24.
- (66) حيدر الشهابي، مصدر سابق، ج 3 ص (712 - 717).
- (67) دار الوثائق القومية في القلعة (القاهرة) مجموعة معية تركي محفظة رقم 4 دفتر رقم 13 وثيقة رقم 79 تاريخ 15 شعبان 1223 (1823/4/2). انظر أيضاً الوثائق رقم 174 و194 و200 من المحفظة والدفتر نفسيهما.
- (68) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية مجموعة المراسلات التجارية والقنصلية الصادرة عن بيروت سجل رقم 1 تاريخ 1823/7/23 والمراسلات (2.2.2) الصادرة عن حلب سجل رقم 28 تاريخ 1825/2/25.
- (69) المصدر نفسه سجل رقم 27 حلب (من اللاذقية) تاريخ 1824/1/24.
- (70) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، قنصلية فرنسا العامة في بيروت (B.E.1) محفظة رقم 8 تاريخ 6 تشرين الأول 1824.